مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فقد أصبحت دراسة بعض الظواهر الجزئية التى تهتم بالنص الشعرى من وجهة معينة فلسفية مثيولوجية وأسطورية، شائعة وكثيرة فى عصرنا الحاضر ولعل أهم هذه الجزئيات التى صوبت الأنظار إليها من قبل الباحثين هى مسائل الزمن ودلالاته، والمكان وأنماطه، والأثر الحضرى وبعض المظاهر الأسلوبية التى تقوم على أساس استنطاق النص بلا عودة إلى مؤلفه وظروفه التناص والسيميائية وما هو معلوم من بين تلك الجزئيات، فالتناص يهتم بعلاقة النص الذى هو بصدد الدراسة مع المرجعيات الأخرى التى شكلته، كالدينية والأدبية والتاريخية، والسيميائية هى نظام العلاقة التى تتحد كجزئية مع غيرها من البنى التركيبية والدلالية والصوتية لتشكيل النص الأدبى (الشعرى وغيره).

ولما كنت بصدد البحث عن موضوع لدراستى وجهت عنايتى نحو إحدى هذه الجزئيات فكان الوقوع على الظاهرة المكانية لعدة أسباب لعل أهمها:

١- إن هذا الموضوع لم يدرس فى الشعر الأندلسى فى الحقب التى اخترتها (من الفتح حتى سقوط الخلافة) ولا يخفى على الكثير أهمية هذا، بسبب كثرة الدراسات التى تتعلق به من جهة، ولعدم وجود ما يميز هذه الدراسات من النواحى العملية والفكرية من جهة أخرى. فالكثير منها متداخل مع بعضها،

والكثير منها أصبحت أسماء معروفة لا تحتاج إلى تأويل، وباتت نتائجها متواضعة بالموازنة مع ما وصلت إ ليه الدراسة النقدية الحديثة.

٢- أهمية الأندلس-كمكان- قبل كل شيء على الشاعر ونتاجه وهذا ما لا يختلف عليه اثنان فهى مكان جميل حباها الله بوافر من الصفات جعلته جنة فى نظر أهله وساكنيه، وهذا ما يدفع البحث نحو نتائج موضوعية مطمئنة.

٣- ما يشكله المكان من أهمية بارزة ومؤثرة فى بنية النص الشعري، وتعود تلك الأهمية لدلالته الكثيرة تبعا لكثرة أنماطه وأنساقه وهذا ما جعل النص الشعرى الأندلسى مفتوحا أمام الباحث لتوضيح تلك الدلالات. والوقوع على هاتيك الأنماط والأنساق.

فضلاً عن أهمية هذه الدراسة مِنْ حيث النواحى الفنية والتركيبية والصوتية فى النص الشعرى الأندلسي، وهى أشياء مهمة تجذب الباحث نحوها، ولعل ما وجدناه سيكشف بصدق ووعى عن هذه الأهمية.

وأما عن منهجية الرسالة فكانت فى تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

فالتمهيد تضمن الحديث عن المكان بمعناه اللغوى ثم بمعناه الفلسفى بشكل مختصر وبسيط يمهد الوصول إلى مضمون الرسالة، ثم الجزء الآخر من التمهيد فكان عن المكان فى النص الأدبى عبر العصور من الجاهلية حتى العصر العباسي، فهذه العصور شهدت تطورا فى الأمكنة، وشهدت عدة شعراء نظروا إلى المكان كلا حسب فكره ومشاعره وأحداثه، فضلا عن أهمية المكان والغرض الشعرى ودلالات هذا المكان وهذا أمر من شأنه أن يمد فصول الدراسة بما هو نافع ومفيد كما أنها تيسر عمل الموازنة بين النصوص التى استقيناها من هذه العصور، وبين ما سنحلله ونقف عنده من نصوص شعرية أندلسية.

تضمن الفصل الأول فاعلية المكان فى الغرض الشعري، فهذه الفاعلية

جديرة بالاهتمام فقد تشكل المكان مع غرض الغزل والمديح والرثاء والفخر، وقد ربط البحث من خلال المكان بين النص الشعرى وبين الشخص الممدوح وهكذا مع مقدمات القصائد الغزلية وقصائد الرثاء والوصف، وكل هذه الارتباطات لها عناية فائقة بالمكان، أو بأحد أنماطه أو مدلولاته.

وأما الفصل الثانى فقد تناول موقف الشاعر الأندلسى من المكان، حيث إن للمكان وطأته وإرهاصاته التى لا تخفى على الكثيرين، وبالتالى فهى غير خافية على الشاعر الحاذق ما أحس اغترابا أو ألفة أو عداء. فكان هذا الفصل يحوى مباحث ثلاثة هى المكان المحبب (الأليف)، والمكان المرفوض (المعادي)، والغربة المكانية والحنين، إذ رأيت أنها تنبثق من نصوص الشاعر الأندلسى التى وضع الباحث يده عليها والتى شكلت مادة جيدة فى استنطاق الظاهرة المكانية، وتبين أهميتها، وتكشف مدلولاتها.

فى حين جاء الفصل الثالث ليحتضن الدراسة الفنية وليحوى كل تلك المناحى التركيبية والصوتية التى تكلمنا عنها فى التمهيد، وليبرز أثر المكان على النص الشعرى الأندلسى من الناحية الفنية، كما نعتقد أننا برزنا أهميته فى النواحى الموضوعية، واشتمل الفصل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: المكان واللغة الشعرية وفيه تم الحديث عن المكان ودوره فى تشكيل النص الشعرى منطلقين من حيثيات أن المكان بنية حية متحركة وجزء أساس من بنية العمل الفني.

أما المبحث الثانى فقد ضم الحديث عن المكان والصورة وشمل الحديث عن ماهية الصورة المكانية ووسائل تشكيلها من خلال أساليب البيان، وكان الحديث مهتما بإبراز الجوانب الفنية للنص الشعرى الأندلسى الذى يوثق الظاهرة المكانية، وعم الاهتمام بهذه الجوانب الفنية أكثر من النظر العلمي، أو البحث فى زوايا فكرية لا تهم البحث بل تساعد على إطالته بلا جدوى أو فائدة.

وانصبت دراسة الباحث فى المبحث الثالث على الظواهر الصوتية استكمالا للجوانب الفنية للفصل والدراسة، وقد وقف الباحث عند الإيقاع الخارجى والمتمثل بالوزن والقافية، والإيقاع الداخلى والمتمثل بالتكرار والجناس والترصيع والتضاد، فكلما وثقت الظاهرة المكانية وبينت أثرها، كلما تركت إيقاعا مؤنسا للشاعر الأندلسى الذى استخدمها استخداما واعيا وجديا.

أما الخاتمة فكانت خلاصة ما أفرزه البحث من نتائج، ومن ثم لابد من الإشارة إلى المصادر التى استقى منها البحث مادته العلمية والفكرية فهى كثيرة ومتنوعة يمكن إدراجها تحت الشعب الآتية:

الأولى: الدواوين والمجموعات الشعرية وهى كثيرة منها ديوان الغزال (ت: ٢٥٠هـ) وديوان ابن عبد ربه (ت: ٣٢٨هـ) وديوان ابن هانئ (ت: ٣٦٢هـ)..الخ.

والثانية: الطبقات وكتب التراجم ومنها جذوة المقتبس للحميدي، وبغية الملتمس للضبي، والذخيرة لابن بسام نفح الطيب للمقري...وغيرها.

ثم الرسائل والأطاريح الجامعية، ففيها الكثير من الطروحات النقدية والعلمية ولا سيما تلك التى تختص بموضوعنا-المكان- فقد كان لها فضل السبق فيما تضمنته من معلومات وتوصلت إليها من نتائج فضلا عن البحوث والمقالات ففيها الشعر المجموع، وفيها الدراسة الفنية المبسطة، ومنها النظرة الموضوعية الدقيقة.

وبعد: فأرجو أن يكون هذا الجهد مقبولا ومحموداً ولا يسعنى فى نهاية هذه المقدمة إلا أن أوجه الشكر الجزيل، والامتنان الكبير لأستاذى ومشرفى د. محمد شهاب العاني، لما أولانى من رعاية كريمة، وعناية عظيمة سهلت مسيرة البحث ووصوله نحو الخير والصواب، فجزاه الله عنى وعن أهل العلم خير الجزاء.

ولى فى ملاحظات أساتذتى أعضاء لجنة المناقشة وتصويباتهم ما يقوم هذا البحث ويوصله إلى بر الأمان خاليا من الهنات والسقطات، فأرجو من الله- سبحانه- أ، يشملهم بعنايته الربانية ورحمته التى وسعت كل شيء، والله أسأل أن يلهمنى السداد فى القول والعمل، إنه سميع الدعاء.

التمهيد

مفهوم المكان

(١) المعنى اللغوى للمكان.

وردت لفظة المكان فى المعاجم اللغوية بمعان ودلالات متقاربة فيها إشارات واضحة وصريحة بأن المكان هو الموضع[١]، وهو ((مكان الإنسان وغيره ولفلان مكانة عند السلطان أى منزلة ورجل مكين من قوم مكناء)) [٢] والجمع أمكنة كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع[٣].

ولعل ورود هذه اللفظة فى المعاجم اللغوية هى التى أشارت إليها آيات القرآن الكريم وفقا لسياق التعبير القرآني[٤] فجاءت بمعنى الموضع أو المستقر، ومنها قوله تعالى:﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ [٥]. أى اتخاذها مكانا نحو الشرق، وقال تعالى:﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [٦] وجاءت هذه اللفظة مجازا بمعنى المنزلة[٧] فى عدة آيات من كتاب الله، منها قوله

---

(١) ينظر: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٨هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت،ط٢، ١٩٧٩م، ٦/ ٢١٩١، لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم الأفريقى (ت:٧١١هـ)، بيروت، (د.ت)، ١٣/ ٤١٤، محيط المحيط، المعلم بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت (د.ت)، مادة (مكن)، ٢/ ١٩٩٧م.

(٢)جمهرة اللغة، لابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى (ت:٣٢١هـ)، ط (أوفسيت)، مكتبة المثنى، بغداد، عن طبعة حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٤٥ هـ مادة (مكن)، ٣/ ١٧١.

(٣)ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ،ط٢، ١٩٥٢م، مادة (مكن)، ٤/ ٤٧٤، تهذيب اللغة، الأزهرى محمد بن أحمد بن طلحة (ت:٣٧٠هـ)، تحقيق: على حسن هلالي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ،(د.ت)، (مكن)، ١٠/ ٢٩٢.

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبدالباقي، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٨٨م، ٦٧٢.

(٥) سورة مريم، الآية ١٦.

(٦) سورة ق، الآية ٤١.

(٧) ينظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة، ٩٧٠م، ٢/ ٥٤٤.

تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [2] أى استبعده مكانه بدلا منه[3].

(٢) المعنى الفلسفى للمكان.

تناول الفكر الإنسانى الظاهرة المكانية قديما وحديثا وأدرك الإنسان أثر المكان فى حياته، ودوره الفاعل فى رسم العلاقة بينه وبين العالم المحيط به.

فعند القدماء تجسد المكان واتخذ طابعا مثيولوجيا[4] ((ينقسم إلى ثلاثة عوالم رئيسية، الماء، الأرض، والعالم السفلي، وهى مأهولة بالآلهة والبشر والأموات على التوالي))[5] وأخذت هذه الرؤية تتطور مع تطور الفكر البشرى من خلال التعامل القائم بين الإنسان والظروف والأحداث التى تنتاب ذلك العالم.

فى حين أن بواكير معرفة هذا المصطلح كانت عند أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) إذ عده الحاوى للأشياء[6] وأخذ بعدا أكبر فى جعله (ما يحوى ذلك الشيء، ويميزه ويحدّه ويفصله عن باقى الأشياء)[7] وجاء أرسطو ليرى بأن لكل جسم مكانا

---

(١) سورة مريم، الآية ٥٧.

(٢) سورة يوسف، الآية ٧٨، وينظر: سورة المائدة، الآية ٦٠.

(٣) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للإمام عبدالله بن أحمد النسفي، دار القلم بيروت، ط١، ١٩٨٩، ٢/ ٧٨٥.

(٤) المثيولوجيا: هى مجموعة من الأساطير والعادات الدينية والعلمانية التى تسود مجتمعا من المجتمعات، ينظر معجم العلوم الاجتماعية، إعداد نخبة من الأساتذة العرب، مطبعة الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٥،٥٨٣، وينظر: معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، مجدى وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ٣٩٨.

(٥) عالم الزمان، المكان، العدد، عند قدماء العراقيين، زهير محمد حسن، مجلة آفاق عربية، بغداد، ع٨، ١٩٨٤، ١٠٧.

(٦) ينظر: مدخل جديد إلى الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، الكويت، ١٩٧٥، ١٩٦.

(٧) نظرية المكان فى فلسفة ابن سينا، تأليف: حسن مجيد العبيدي، مراجعة وتقديم: الدكتور عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية، بغداد ، ١٩٨٧،ط١، ١٩.

خاصا يشغله[1]،، وعرفه بأنه (نهاية الجسم المحيط)[2] وعند أقليدس (٣٠٠-٢٤٦ ق.م) هو ثلاثى الأبعاد (الطول، العرض، العمق)[3].

أما فى الفلسفة العربية فقد أشار الكندى (١٨٥-٢٥٢هـ) إلى أن المكان موجود ولا يمكن إنكاره[4]. وعرف المكان بأنه (التقاء أفقى المحيط والمحاط به) [5] وسار الفارابى (٢٧٥-٣٣٩ هـ) على منوال الكندى مؤكدا أن المكان موجود بَيِّنْ، ولا يمكن إنكاره إذ لا يمكن أن يوجد جسم من دون مكان خاص به[6].وذهب ابن الهيثم (٣٥٤هـ-٤٣٠هـ) مؤكدا (أقوال من قال: إن المكان هو الأبعاد)[7].

وفيما يخص الدراسات الحديثة فقد جاءت على رأسها دراسة جاستون باشلار فى كتابة (جماليات المكان)، ومجمل رؤياه فى هذا الكتاب أن الإنسان دون المكان لا سيما البيت يصبح كائنا مُفَتَّتًا لا استقرار له[8].

وبعد هذه النبذة فى عالم الفلسفة نجد أن المكان قد اتضحت معالمه ووجوده ولا يمكن إنكاره، وهذا الخلاف فى مفهوم المكان- فلسفيًا - عائد إلى تعدد الدراسات الفلسفية وكثرة مناهجها وأقسامها ومن ثم فإن مفهوم المكان يتحدد تبعا لطبيعة الدراسات ومنهجها.

---

(١) ينظر : تيارات فلسفية معاصرة، على عبد المعطى محمد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٤، ٢٩٠.

(٢) الطبيعة، أرسطو طاليس، حققه: عبدالرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤ م، ٤/ ٣١٢.

(٣) ينظر: دراسات ومذاهب، د.محمد عزيز نظمى سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٨، ٢٧٦-٢٧٧.

(٤) ينظر: رسائل الكندى الفلسفية، حققها وأخرجها: د.محمد هادى أبو ريدة، طبعة القاهرة، ١٩٥٣، ٢/ ٢٦.

(٥) المصدر نفسه: ١/ ١٦٧.

(٦) ينظر رسائل الفارابى فى الحكمة، طبعة حيدر آباد الدكن (١٣٢٩ هـ)، ٩٩.

(٧) نظرية المكان فى فلسفة الحسن بن الهيثم الطبيعية، نعمة محمد إبراهيم، مجلة آداء المستنصرية، ع١٢، ١٩٨٥، ٥٢٦.

(٨) ينظر: جماليات المكان، تأليف: جاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، يصدر عن مجلة الأقلام، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ٤٥.

(٣) المكان عبر العصور الأدبية

عرف الإنسان العربى بحبه للأرض وارتباطه بها وحنينه لكل مكان تركه، وهذه السمة نلمس آثارها لدى الشاعر العربى بشكل كبير، فجاءت أهمية المكان لكونه (حقيقة معاشة، يؤثر فى البشر بنفس القدر الذى يؤثرون فيه)[١].

وفى شعرنا العربى نجد هذا الارتباط بالمكان منذ عصر ما قبل الإسلام فكان الوقوف على الأطلال سمة بارزة لدى الشاعر الجاهلى وعنصرا لا غنى عنه بل (هو جزء من كيان عضوى كلى يخضع لمطلقات القصيدة الكلية ولبنيتها)[٢].

وجاءت أهمية المكان فى هذا الشعر من هذه الظاهرة وأصبحت مستهلا وباعثا من بواعث أصالة القصيدة العربية، بل وبنية من أبنيتها التى عدت أساسا لتركيب القصيدة العربية للعصور التى تلت هذا العصر.

وكانت هذه الأماكن قد شكلت مجموعة مثيرات دعت إلى إثارة العواطف وتصوير انقلاب الحال والعودة إلى الماضى الضائع وإثارة الإحساس بعنف تجربة الحرمان من الاستقرار.[٣] فنجد الشاعر باكيا الذكريات الخالية بمرارة وألم تارة، واصفا تلك الأماكن الدارسة تارة أخرى، وكلا الأمرين يعكس لنا الاضطراب النفسى والأيديولوجى لدى الشاعر العربي. فهذا امرؤ القيس استوقفته الديار فَحنَّ إلهيا وبكى عليها حين قال فى معلقته الخالدة:

قِفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

---

(١) جماليات المكان، مجموعة من الباحثين، عيون المقالات للنشر، دار قرطبة، ط٢، ١٩٨٨م، ٦٣.
كتبت رسالة ماجستير تحت عنوان (المكان فى الشعر العربى قبل الإسلام) للباحث حيدر لازم مطلك، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٧م. تناول فيها خصوصية المكان ومظاهره عند الشاعر العربى قبل الإسلام. ينظر: ٣٤-٨٢. وفى الفصل الثانى تناول دلالات المكان. ينظر: ٩٩-١٣٩.

(٢) الاستهلال فن البدايات فى النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٣م، ٥٦.

(٣) ينظر:شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين، دراسة تحليلية، د.محمود عبدالله الجادر، دار الرسالة للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م، ٢٤٢،٢٤٣.

فتوضح فالمِقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمألِ[1]

فجدلية الارتباط بين الذات والمكان هى ما تقوم عليه هذه المقدمة فهما متداخلان فى نسق سياقى واحد، وشكل وقوفه على تلك الأماكن عودة إلى الماضي، وإلى أيام الصبا فكانت هذه الأماكن باعثا لذكرى تلك الأيام وذلك الملك الضائع، فالمكان هنا المنفذ الوحيد للشاعر للهرب نحو كل ما هو جميل، والمثير الذى يولد كل هذه الإحساسات بل ويوثقها ويكسبها صدقا فى العاطفة وعظمة فى المشاعر ودقة فى التعبير.

واتخذ عنترة بن شداد العبسى من المكان أيضاً منفذا عاطفيا يلج من خلاله إلى وصف المحبوبة جاعلا منه بؤرة الحدث، ومركز الحدث فهو القائل:

دارُ لآنسةٍ غضيضٌ طرفُها طوعَ العناق لذيذة المتبسم[2]

ومثلما هو منفذ عاطفى ووجدانى للشاعر فهو دافع للغربة، وإثارة مشاعر الشوق، وعواطف الحنين إلى ديار الأهل والأحبة، يقول عنترة:

حُييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفى بعد أم الهيثم

شطت مزار العاشقين فأصبحت عسرا على طلابك ابنة مخرمِ

كيف المزار وقد تربع أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغيلمِ[3]

فهنا غربة مكانية قاسية ألمت بالشاعر وتركته فى أحضان الشوق والحنين وهذا الحنين مرتبط بالمحبوبة، وشكل المكان باعثا من بواعث الغزل والحنين، لأن المكان تتمحور دلالته وتبنى وظيفته فى الشعر من خلال الأشخاص(المرأة، الممدوح، المرثي) كما ترتبط دلالته ووظيفته بالأحداث وتغيرها.

---

(١) ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، بمصر، ١٩٥٨م، ٨.

(٢) ديوان عنترة، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٧٠م، ٨٩.

(٣) المصدر نفسه: ١٨٥-١٨٦

وقد ضمن الشاعر زهير بن أبى سلمى المكان كل معانى الألفة والحياة ورأى فيها الأنيس الوحيد بعد غياب الحبيب فهو القائل:

قف بالديار التى لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والأيمُ
لا الدار غيرها بعد الأنيس ولا بالدار لو كلمت ذا حاجة صممُ
دارٌ لأسماء بالعمرين ماثلة كالوحى ليس بها من أهلها إرمُ[1]

فالشاعر استوحى ألفته من الدار بعد غياب الحبيب وأصبحت أنيسه الوحيد.

وعكس المكان عند الشاعر الجاهلى صعوبات الحياة التى عاشها وقسوة الظروف الطبيعية التى عرفها، فكانت حياته حافلة بالمخاطر والصعاب ما لبث أن دونها فى شعره، وأبان عن تجربته المعاشة بتجربته الشعرية.

فهذا لبيد بن ربيعة العامرى يقول:

وأقطعُ الخرقَ قد بادت معالمه فما يحسُّ به عينٌ ولا أثر[2]

فهو يسير فى مكان مجهول المعالم، مشتتاً ضائعا، والذات تبحث عن نفسها وعن وجودها فى هذا الوسط المكانى دون جدوى، لا تدرى ولا تعرف إلى أين؟ وكيف....ولماذا؟ ويبقى المكان المثير لهذه المشاعر.

ونجد أن المكان قد جسد مظاهر العدائية فتذمر الشعراء وأخذوا يصرفون العنان إلى أماكن أخرى فهذا قيس بن الخطيم يقول:

وما بعضُ الإقامةِ فى ديارٍ يكونُ بها الفتى إلاّ عَنَاءُ[3]

وتثير الأطلال والأحزان والآلام لدى الشاعر وتمد الشاعر بخزين(مثقل

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى، صنعة ثعلب أبى العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيبانى (ت: ٢٩١هـ)، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٤، ١٤٥.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق: إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م، ٦٦.

(٣) ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م، ١٥٣.

بالذكريات، وفيه دائما صلة تشد الشاعر إلى ماضى حبيب إليه)[1] فهذا النابغة حين رأى دار الحبيبة بعد أن أقوت وأضحت خالية من الأنس أحس بالتمزق والضياع والوحشة فذهب قائلاً:

يـــا دار مـــية بالعلـــياء فالـــسند أقـوت وطـال علـيها سـالف الأبـدِ
وقفـت فـيها أصـيلا كـى أسـائلها عيت جوابا وما بالربع من أحدِ[2]

وفى تجربة الصعاليك نجد للمكان بعد آخر، فالمكان (الصحراء) بالنسبة لهم دار إقامة، فكان له الأثر السلبى والإيجابى فى الوقت نفسه على حياة هؤلاء الصعاليك، أما الجانب السلبى فتمثل بالنظرة العدائية للمجتمع بعد أن عانوا من الظلم والاضطهاد والتشرد من قبل قبائلهم والتى ألقت بهم فى غيابات الصحراء المترامية الأطراف، والجانب الإيجابى تمثل فى كون هذا المكان - الصحراء- قد خلق منهم رجالا أقوياء يمتازون بالشجاعة والصبر، لأن حياة الصحراء (تربى فى نفوس أبنائها صفات الشجاعة والجرأة والكبرياء العنيدة، كبرياء الرجال الأحرار)[3] فهذا تأبط شرا يألف المكان وما فيه من الوحوش حين قال:

يبـيت بمغنـى الـوحش حتـى ألفـنهُ ويـصبح لا يحمـى لهـا الدهـر مـرتعا
رأيـن فتـى لا صـيد وحـش يهمـه فلـو صـافحت أنسا لـصافحنهُ معا[4]

أما الشنفرى فهو الآخر يصرخ صرخة تحد فى موجهة الصعاب حتى يجعل من وحوش الصحراء أهلا له فهو القائل:

أقـيموا بنـى أمـى صـدور مطـيكم فإنـى إلى أهـل سـواكم لأمـيلُ
ولى دونكـم أهلـون سـيد عملّـس وأرقـطُ زهلـول وعـرفاءُ جـيالُ

---

(١) شعر الوقوف على الأطلال، د.عزة حسن، دمشق، ١٩٦٨م، ١١٥.
(٢) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٥٣م، ٣٠.
(٣) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلي، د.يوسف خليف، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩م، ٧٣.
(٤) ديوان تأبط شرا وأخباره، تحقيق: على ذو الفقار، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٤م، ١١٥.

هـمُ الأهـلُ لا مـستودع الـسرّ ذائـع لـديهم ولا الجانـى بمـا جـر يخـذلُ[1]

خلاصة القول أن المكان كان باعثا من بواعث قول الشعر وجسد دلالات مختلفة لدى الشاعر الجاهلى فمثل الألفة والعدائية والغربة والحنين أما الغرض الشعرى فكان مقترنا به فلا تذكر الأطلال إلا وتذكر المرأة وكأنهما شيئان متلازمان أحدهما مكمل للآخر.

أما فى عصر صدر الإسلام فقد كان ظهور الإسلام حدثا كبيرا فى حياة العرب، ولا بد لهذا الحدث أن يؤثر بالشعر لكونه لسان حال الأمة فى تلك الحقبة، ومن مظاهر هذا التأثير اختلاف رؤية الشاعر تجاه المكان، فأصبحت رؤية مشحونة بتيار إسلامى وأخذ الشاعر يلهج فى ذكر الأماكن المقدسة بعيدا عن أماكن اللهو والغزل والمجون وربما كان مرد ذلك إلى (توارى الشاعر خجلا وآثر الانزواء حياء أمام دوى الدعوى الجديدة، وحيال سلاسة أسلوب كتابها العزيز)[2] وأصبح الأمر مختلفا تماما بعد مجيء الإسلام (وصار الذى يقول الشعر أو يخطب فى المجامع أو يتحدث فى المجالس لا ينطق إلا بحذق ولا يقول إلا بميزان فلا يتلفظ بهجر مزر أو أدب معيب أو كلام هزيل أو بيان مرذول)[3] وصدى هذا الحدث واضح فى أشعار حسان بن ثابت رضى الله عنه حين قال:

بطيـبة رسـمُ للرسـول ومعهـد مـنير وقـد تعفـو الرسـوم وتهمـدُ
ولا تنمحـى الآيـات مـن دار رحمـة بهـا منبر الهـادى الـذى كـان يـصعدُ

---

(١) أعجب العجب فى شرح لامية العرب، الزمخشري، محمود بن عمر (ت: ٥٣٨هـ)، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية، ١٣٠٠هـ،١٣-١٧.

(٢) الأدب العربى فى موكب الحضارة الإسلامية،د.مصطفى الشكعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤م، ٩٢.

(٣) الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام، د.محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م، ٤٢.

وواضح آيات وباقى معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجدُ

بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقدُ

معالم لم تطمس على العهد أيها ... أتاها البلَى فآلاء منها تجدد

عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبرًا به واراه فى التراب ملحدُ[1]

فهنا يقف الشاعر على هذه الأمكنة المقدسة، إنها ليست آثار الجاهلية وأطلال الحبيبة، بل هى ديار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فيذكر (طيبة مدينة الرسول) ويبكى الآثار ولكن شتان ما بين البكائين - بكاء الجاهلية والإسلام- وآثار هذا المكان بعيدة كل البعد عن آثار الجاهلية فهى ليست أماكن للحبيبة أو آثار الأهل الراحلين عنها بل هى آثار وأماكن واضحة المعالم شاخصة لا تغيرها صروف الزمان إنها شعلة النبوة وآثار المسجد التى تتوهج كلما مر عليها الزمان، وتلا فيها المسلمون آيات الذكر الحكيم، إنها أماكن الرسول تضيء نورا فى الأذهان وفى القلوب فرسومها باقية وآثارها متجددة فى كل وقت وحين.

ويأتى المكان فى شعر الحطيئة، ليعبر عن معاناة قاسية عاشها فى السجن وكان ذلك أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن هجا الزبرقان بن بدر، فترك ذلك المكان آثرًا سيئاً فى نفسه، وما من سبيل إلا أن يرسل أبياتاً شعرية يستعطف فيها الخليفة، ويذكر بها حاله وحال أولاده ويلجأ أيضاً إلى وصف للمكان بأنه قعر مظلم:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجرُ

غيبت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ

---

(١) ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتب هوامشه وقدم له: الأستاذ عبد أ.مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٦م، ٦٠-٦١.

أنت الأمين الذى من بعد صاحبه ألقت إليك مقاليد النهى البشرُ[1]

فنلاحظ الوصف المأساوى للسجن والذى انعكست آثاره على نفسيته وحاول جاهدا إظهار هذه المأساة من خلال وصفه، وليجد فيه منفذاً للخروج من هذا المأزق.

أما فى العصر الأموى فلم يكن أثر المكان أقل شأنا فى الشعر من العصور التى قبله فهذا مالك بن الريب أضناه البعد عن الأهل والأحبة وعصفت به رياح الغربة فذهب قائلاً:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

لقد كان فى أهل الغضا لو دنا الغضا مزار ولكن الغضا ليس دانيا[2]

فهو متشوق لديار أهله وأحبته ويتمنى لو أنه يستطيع أن يأوى إليها، ويبيت فيها ولو ليلة واحدة، يسوق الإبل شأنه شأن فتيان قبيلته ويلجأ إلى تكرار اسم (الغضا) محاولا إظهار لوعة الشوق والحنين إليه.

والعربى تميز بحبه لأماكن البادية (الصحراء وما فيها) ويشعر فيها بحرية ((ويجد نفسه فى الصحراء، كما يجدها فى ربوع الماء والزرع، ووجوده هنا لا يتحقق بسبيل العيش والتجارة، بل فى تأكيد الذات إزاء المحيط الواسع المتناهي))[3].

وسر العلاقة ((بين الإنسان والمكان- من هذا المنحى- تظهر بوصفها علاقة

---

(١) ديوان الحطيئة، تحقيق: د.نعمان أمين طه، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ط١، ١٩٥٨م، ٣٠٨.

(٢) شعراء أمويون، دراسة وتحقيق: د. نورى حمودى القيسي، مطبوعات المجمع العلمى العراقي، ١/ ٤٢.

(٣) الرواية، والمكان، ياسين النصير، الموسوعة الصغيرة، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٦م، ٢/ ١٢٠.

جدلية بين المكان والحرية))[1] وتصبح العلاقة بينهما- الإنسان والمكان - قائمة على الألفة، وهذا ما وجدناه لدى ميسون بنت بحدل الكلبية[2] زوج معاوية حين ضاقت بها الدنيا عندما نقلها زوجها من البادية إلى الشام، واتخذت من القصور الفخمة منزلا لها بعد الصحراء، ولكن ما أن لبثت حتى أطلقت زفرات الحنين والأنين إلى المكان الذى نشأت فيه فقالت:

لبيت تخفقُ الأرواح فيه ... أحبُّ إلى من قصر منيف

ولبس عباءة وتقرّ عيني ... أحبّ إلى من نقر الدفوفِ

خشونة عيشتى فى البدو أشهى ... إلى نفسى من العيش الظريفِ[3]

فهى تألف البادية وتنفر من القصور ونعيمها وتحن إلى صعوبة عيشها فى ذلك المكان وتفضله على عيش القصور والترف الذى فيها.

وتنعكس آثار المكان سلبا أو إيجابا على الشاعر، فألفة المكان وعدوانيته تتحقق بما يتركه من أثر فى النفس[4]. والسجن هو أكثر الأماكن عدائية، لأسباب معروفة، فهذا عبد الله بن عمر العرجى أحس بالضياع والحرمان من الحرية بعد أن زج به فى السجن على يد محمد بن هشام[5]، وآثار المكان ورهبته واضحة على نفسية الشاعر فذهب قائلا:

---

(١) جماليات المكان، مجموعة من الباحثين، ٦٢.

(٢) هى ميسون بنت بحدل زوج معاوية بن أبى سفيان، وكانت بدوية فضاقت نفسها لما ترى عليها، فعذلها قال لها: أنت فى ملك عظيم وما تدرين قدره وكنت قبل القيوم فى العباءة، فقالت هذه الأبيات. ينظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تأليف: عبد القادر بن عمر البغدادى (١٠٣٠-١٠٩٣)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٨١م، ٨/ ٥٠٥-٥٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ٨/ ٥٠٣-٥٠٤

(٤) ينظر: دراسات فى النفس الإنسانية، محمد قطب، دار القلم، القاهرة، (د.ت)،٧٠.

(٥) ينظر: خبر الحادثة فى الأغاني، لأبى الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه: عبد أ. على مهنا، سمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٦م، ١/ ٣٩٩.

أضـــاعونى وأى فتـــى أضـــاعوا لـــيوم كـــريهة وســـداد ثغـــرِ

وصـــبر عـــند معـــترك المـــنايا وقـــد شـــرعت أســـنتها بنحـــرى

أجـــرر فـــى الجوامـــع كـــل يـــومٍ فـــيا لله مظلمتـــى وصـــبرى

كأنـــى لم أكـــن فـــيهم وســـيطا ولم تـــك نـــسبتى فـــى آل عمـــرو[1]

إنه الإحساس بالضياع وتقلب الزمان به، وضيق المكان ووحشته جعله يفخر بنفسه حتى يتخلص مما هو فيه من حرمان وشدة وضنك وتقييد للحرية.

وإذا ما عدنا لشعر مالك بن الريب فسوف نجده يحدثنا عن تجربة السجن أيضاً وما قاساه فيه، فهو القائل:

أتلحـــقُ بالـــريبِ الـــرفاقُ ومالـــك بمكـــة فـــى ســـجنٍ يعنـــيّه راقـــبهْ[2]

فقوله: (فى سجن يعنيه راقبه) يعبر بصدق عن معاناة الشاعر من حارس السجن الذى سقاه سوء العذاب.

ويبقى السجن مكانا للرهبة والخوف لدى الشاعر الأموى فهذا الفرزدق يقول:

فـــى محـــبسٍ يـــتردّى فـــيه ذُو ريـــبٍ يُخشَى على شديد الهولِ مرهوبِ[3]

فالرهبة الخوف والظلمة كلها من مكونات هذا المكان الذى ألم بنفسية الشاعر وعصف به فى مهاوى الخوف والحزن.

أما ألفة المكان فهى متأتية من ألفة ساكنيه، وهذا ما نجده واضح المعالم لدى شاعر الغزل العذرى جميل بثينة حين قال:

---

(١) الأغانى، ١/ ٣٩٩.

(٢) شعراء أمويون، ١/ ٢٤.

(٣) شرح ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه وأكملها، إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ١/ ٨٤.

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل إلى اليوم ينمى حبها ويزيدُ

يذكر فيها كل ريح مريضة لها بالتلاع القاويات وئيد

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى القرى إنى إذن لسعيد

وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسة وقد تطلب الحاجات وهى بعيدُ[1]

فالرياح الهادئة تذكره ببثينة فيزداد شوقا إليها ويتمنى أن تعود أيام الوصل واللقاء معها، كما يتمنى العيش ولو ليلة واحدة فى وادى القرى مربع الأهل والأحبة، ويتودد إلى ذلك المكان الذى شهد أيام طفولتهما وأيام الوصل بينهما.

وقد يصد الشاعر عن المكان الذى ألفه (مكان الحبيبة) ويلجأ إلى الأماكن المجاورة لها، ليجد فى هذا الصدود ما يثير فى نفسه آلاما وجدانية مبرحة[2]،ومثل هذا نجده فى قول كثير عزة.

وإنى لَيُثْنِينِي الحياءُ فأنثني وأقعدُ والممشى إليكِ قريبُ

وآتى بيوتًا حولكم لا أحبّها وأُكثرُ هجر البيت وهو جنيبُ[3]

---

(١) ديوان جميل بثينة، جمع وتحقيق وشرح: د.حسين نصار، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م، ٥٦-٥٨.

(٢) ينظر : التمويه وأساليبه فى الغزل الأموي، د. عزمى الصالحى دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٢م، ٩٥.

(٣) ديوان كثير عزة، جمعه وشرحه: د. إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت ، لبنان ١٩٧١م، ١٦٥.

(٤) كتبت أطروحة دكتوراه تحت عنوان (الزمان والمكان فى شعر العصر العباسى الأول ١٣٢-٢٣٢ هـ) للباحث غنى صكبان سلمان، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغدد، ٢٠٠١م. تناول فى الفصل الثانى من الباب الأول دراسات نظرية عن المكان. ينظر: ٥٦-٧١. وتناول فى الفصل الثانى من الباب الثانى أنواع المكان وخصائصه.ينظر ١٣٩-١٦٧.

فهو مرغم على أن يأتى المكان الذى لا يحبه، بسبب قاطنى المكان- الحبيبة- التى تجعل منه إنسانا ملتصقاً بذلك المكان، لشدة تأثير الحب فى نفسيته والذى جعل منه إنساناً آخر ينظر إلى بيتها نظرة الحب البعيد المنال.

وفى العصر العباسى [1] نجد أن الشاعر قد تعامل مع المكان بالموضوعية نفسها كما تم توظيف هذا العنصر فى العمل الادبى بشكل واضح لدى شعراء هذا العصر فهذا أبو تمام يقول:

أرومُ حمـــى العـــراق فتدَّرينـــى رمـــاة جـــوَّى لـــشجوٍ مـــا تـــصيبُ
وتـــشفقنى دمـــشق وســـاكنوها ولا صَـــدَدُ دمـــشق ولا قـــريبُ
ســـقى الله الـــبقاع فحـــيث راقـــت جـــبال الـــثلج رحبـــى والـــرحيبُ[1]

فنراه يسترجع أكثر من بؤرة مكانية، وكل واحدة من هذه الأماكن يمثل نقطة ضغط على ذات الشاعر، فهو يحن إليها ويتشوق اشتياق المغترب عن بلده.

وهذا الشوق والحنين لمثل هذه الأمكنة نجده أيضاً فى الأبيات الشائعة الذكر حين قال:

نقـل فـؤادك حيث شئت مـن الهـوى مـــا الحـــب إلا للحبـــيب الأولِ
كـم منـزل فـى الأرض يألفـه الفتـى وحنيـــنه أبـــدًا لأول منـــزلِ[2]

فالحب والمنزل أمران متساويان لدى الشاعر، وكما وجد دفء العاطفة والأمان فى الحبيب الأول وجدها أيضاً فى دار إقامته الأولى، ومن هنا تنبع خصوصية كل مكان كونه ترجمة لأحاسيس الشعراء.

---

(١) شرح ديوان أبى تمام، للصولي، دراسة وتحقيق: د.خلف رشيد نعمان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٧٧، ٣/ ٥٩٥-٥٩٦.

(٢) شرح ديوان أبى تمام للصولي، ٣/ ٤٥٩.

والمتنبي[1] نجده أيضاً يحن ويبكى على المكان الذى ألفه وتذكر فيه أيامه السالفة فهو القائل:

مررتُ على دار الحبيب فحمحمتْ جوادى وهل تشجو الجياد المعاهد

وما تنكر الدهماء من رسم منزل سقتها ضريبُ الشّول فيها الولائدُ[2]

فهو يجعل من الإبل والجياد تشاركه الحنين لمثل تلك الأمكنة، ليظهر لنا توجعه والألم الذى يحس به جراء المرور بمثل هذه الأمكنة، وهو أسلوب شعرى كثيرا ما اعتاد عليه الشعراء.

ونجد أيضاً أن المتنبى قد ((وقف على الرسوم والأطلال كما وقف غيره وذرف الدموع فى الربوع الخالية))[3] وأخذ يقول:

دمعُ جرى فقضى فى الرّبع ما وجبا لأهله وشفى أنّى ولا كربا

عجنا، فأذهب ما أبقى الفراق لنا من العقول وما ردَّ الذى ذهبا

سَقَيْنَهُ عبرات خلنها مطرا سوائلا من جفون ظنها سحبا[4]

فهذا المكان قد زاد فى حزنه فراح يسكب عليه العبرات التى تشبه المطر فى انحدارها وتنهمر من جفونه كأنها سحب على تلك الدمن والآثار.

---

(١) كتبت أطروحة دكتوراه تحت عنوان (وحدة الزمان والمكان فى شعر أبى الطيب المتنبي) للباحث حيدر لازم مطلك، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٢. تناول فى الفصل الرابع وحدة الموضوع فى الزمان والمكان معرفا بالمكان وأنواعه وخصائصه ودلالاته فى شعر هذا الشاعر الكبير. ينظر: ١٥٤-٢١٦.

(٢) شرح ديوان المتنبي، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٣٨م، ٢/ ٣٩٢، الحمحمة، دون الصهيل، الدهماء: الفرس، الشول: النوق التى قل لبنها.

(٣) لغة الحب فى شعر المتنبي، تأليف الدكتور عبد الفتاح صالح نافع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٨٣م، ١١٥

(٤) شرح ديوان المتنبي، ١/ ٢٣٧

أما دموع أبى فراس الحمداني[1] على الأطلال فكانت مدرارة وشكلت لدى الشاعر حنينا وشوقا لا حدود له، ارتسم هذا الشوق فى سجنه ووجد فى تذكره لهذه الأماكن ما يطفئ نار الأسى التى التهبت فى داخله فهو القائل:

أبــتْ عــبراته إلا انــسكابا ... ونــار ضُــلوعه إلاّ الــتهابا

ومــن حــق الطلــول علــى ألاّ ... أغِــبَّ مــن الدُّمــوع لهــا سَحابا

ومــا قــصّرت فــى تــسآل ربــع ... ولكنــى ســألتُ فمــا أجَابَــا[2]

فنظرة إلى هذا النص تكشف لنا أن الشاعر قد اتخذ من الأطلال منفذا عاطفيا، ليبث معاناته وشكواه النفسية التى ألمت به فى ذلك المكان الـمُعادى (السجن).

أما الشريف الرضى فهو يألف دار الحبيبة ويحن إليها، ليجد فيها عبق الماضى السعيد حيث يقول:

يــا دار مــا طــربت إلــيك الــنوق ... إلا وربعــك شــائقٌ ومــشوقُ

جاءتـك تمـرح فـى الأزمـة والـبرى ... والزجــر وردٌ والــسياط علــيقُ

وتحــن مــا وجــد المــسير كأنمــا ... كــل الــبلاد مهجــرٌ وعقــيقُ

دارٌ تملكهــا الفــراق فــرقّها ... بالمحـل مـن أسـر الغمـام طلـيقُ[3]

فهو ينادى تلك الدار ويصف لنا حنين النوق إليها، وحقيقة الأمر هو وَصْفٌ لحنين الشاعر ذاته، وجعل من حنين النوق تعظيما ومبالغة، لينقل إلينا حنينه.

---

(١) كتب رسالة ماجستير تحت عنوان (الزمان والمكان فى شعر أبى فراس الحمداني، للباحث ناظم محمد خلف، تناول فى الفصل الثانى الواقع المكانى فى شعر أبى فراس، ينظر : ٤٩-٧١. وفى الفصل الثالث تناول جدلية الارتباط بين الزمان والمكان. ينظر ٧٣-١٣٥.

(٢) ديوان أبى فراس الحمداني، شرح وتحقيق وتعليق: سامى الدهان، بيروت، ١٩٤٤، ٢/ ١٢.

(٣) ديوان الشريف الرضي، دار صادر، بيروت، ١٩٦١م، ٢/ ٤٩.

وثمة شيء آخر فى العصر العباسي، هو أنه عصر حافل بالأحداث السياسية والاجتماعية فكان لابد أن تضع هذه الأحداث بصماتها على الشاعر العباسى كون الشاعر ابن بيئته يتأثر ويؤثر بها، وهذا ما وجدناه لدى الشريف الرضي، إذ تحول المكان بالنسبة للشاعر إلى باعث معاناة قاسية فيرفض العيش والإقامة فى دار الهوان[1]، وأصبحت بغداد بالنسبة له دار ظلم وذلك بعد أن تسلط عليها الأجانب فيعزف عنها قائلاً:

ليلى بـبغداد لا أقـرُّبه ... كأننـى فـيه ناظـرُ الـرمدِ
ينفـر قومـى كـأن مقلـته ... تُـشرجُ أجفانهـا علـى ضـمدِ[2]

وإلى هذه المعاناة القاسية والرفض للمكان ذهب الشريف الرضى إلى التذمر من دار الإقامة بعد الفتن والحروب التى أصابت بلاده ولهذا يقول:

لـيسَ دارُ الـزوراء دارُ مقـام ... وثـراها حـربُ لمـاء الغمـام
لـيس فـيها عـيش قـصيرٌ وسـاعا ... تـكُ فـيها الطـوال كالأعـوام
وإذا مـا طلـبتُ فـيها دواءً ... لـسقامى فلـيس غـير سـقام[3]

هذا الرفض والتذمر من المكان، وتحول نظرة الشاعر نحوه من أليفة إلى معادية، مردها إلى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أحاطت ببغداد فى تلك الفترة وما أصابها من خراب ودمار انعكست آثارها سلبا على الشاعر فعزف عن دار إقامته وأصبح لا يطيق عيشها ولا يجد فيها غير السقام.

وصفوة القول إن المكان قد شكل حضوراً دائما فى الشعر العربى وعلى مر العصور

---

(١) ينظر: الاغتراب فى حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م، ١١.

(٢) ديوان الشريف الرضي، ١/ ٣٠١.

(٣) ديوان الشريف المرتضى، حققه:رضيد الصفار، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م، ٣/ ٢٤٢

الأدبية التي تناولتها، بل، كان باعثا من بواعث قول الشعر، وشكل خصوصية واضحة في الشعر، هذه الخصوصية لم تكن جاءت نتيجة لارتباطه بكثير من الدلالات الاجتماعية والنفسية.